الجمع بين العقل والوجدان في أساليب القرآن

د. محمد عمار الأبيض*

مقدمة

قبل الدراسة لأسلوب القرآن لا بد أن نتحدث عن الأسلوب.

جاء في لسان العرب: « يقال للسطر من النخيل أسلوب. والأسلوب الطريق والوجه والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء. ويجمع على أساليب. والأسلوب: الطريق تأخذ فيه. والأسلوب: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه »(1).

إن الأسلوب هو طريقة الشاعر أو الكاتب أو الأديب بعامة في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه. يقول الشايب في كتابه الأسلوب: « تختلف الأساليب تبعاً لاختلاف المنشئين سواءً كانوا كتاباً أم خطباء أم شعراء أم مؤلفين، إلى غير ذلك، فالموضوع هنا واحد، خطابة، أو كتابة، أو شعراً، ولكن الأشخاص يتعددون فإذا الأسلوب يختلف في الفن الواحد باختلاف هؤلاء الأدباء »(2).

ويقول في موضع آخر: « كيف يختلف الأسلوب في الموضوع الأدبي الواحد؟ ذلك راجع إلى اختلاف الأشخاص الذين يتناولون الموضوع »(3).

اختلفت الأساليب تبعاً لاختلاف الأدباء فيما بينهم، فتبرز المفارقة بدورها واضحة لدى الأدباء، سواء كانت اجتماعية، أو نفسية، أو في أي غرض من الأغراض، فالمغايرة والاختلاف، من متممات الأسلوب، فلا ترى أديباً يشبه أديباً، ولا خطيباً يشبه خطيباً، فلكلٍ وجهته، ولكلٍ طريقته.

يقول صاحب كتاب الأسلوبية والأسلوب: « إن الخصائص الأسلوبية في الخطاب ليست صيغاً تالية يؤتى بها للتزيين والتحسين، وإنما هي جوهرية، لا تتحقق المادة الإنشائية إلا بها »(4).

---

* الجامعة الأسمرية – زليطن - ليبيا

الأسلوب القرآني

إن أسلوب القرآن الذي نحن بصدد دراسته، فإنه يخالف مخالفة تامة كل الأساليب؛ لأنه تنزيل من الحكيم الحميد. وقد جعله الله المثل الأعلى المعجز بفصاحته، وبيانه، ونظمه.

تلا الرسول الكريم على الوليد بن المغيرة من أول سورة فصلت: (حم ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞)[5]، إلى قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۞ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۞)[6]. عندها ناشده الرحمن أن يكف عن ذلك، ثم رجع إلى قومه يقول: « والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر »[7]. وهذا دليل على انفراد القرآن بأسلوبه المميز، ومخالفته ومغايرته لكل الأساليب، بطابعه الأسلوبي الذي أفحم الفصحاء والبلغاء من قريش، وتركهم حائرين يلتمسون معرفة أسراره.

يقول الزرقاني: « إنه يتجلى جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه اللغة المختلفة، المؤتلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم، وضع كلاً من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش، وقشرة سطحية أخاذة، امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة برقة الحضارة من غير ميوعة، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز بحيث لو داخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه واختل نظامه في آذان سامعيه »[8].

إن الأسلوب القرآني بما امتاز به من هذه الخصائص أعجز العرب وأخذ بألبابهم برغم أنه من جنس كلامهم، لأنه انفرد في تأليف كلامه عن سائر الأساليب.

ويرى الرافعي أن الأسلوب القرآني ميزة لا يمكن أن توجد في غيره بأي وجه، وهي عدم الملل من إعادته وتكراره، يقول: « ومما انفرد به القرآن، وباين سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد، وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وكلما أخذت فيه، رأيته غضاً طرياً، وجديداً موفقاً، وصادفت من نفسك له نشاطاً مستأنفاً، وحساً موفوراً. وهذا أمر يستوي في أصله العالم الذي يتذوق الحروف، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها، على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه »[9].

خصوصية الأسلوب القرآني

ليس عجيباً أن يظل القرآن متفرداً بأسلوبه الخاص الذي تحدى العرب وهم الفصحاء، وأن يستمر هذا التفرد، فهو جديد لا يخلق، وحلو لا يمل سماعه، وقد وجد فيه جهابذة البلاغة وأئمة البيان على توالي القرون والأزمان، ما لم يجدوه في غيره، وقد انكبوا عليه دراسة وفهماً، فلم يجدوا في أساليب البلغاء في الفصحى ما يدانيه، فهو المحكم في أسلوبه، البالغ الغاية في معانيه ومراميه.

عرض العرب القرآن على موازين الشعر فوجدوه مخالفاً لها، وعلى مقاييس النثر، فوجدوه متميزاً عنها[10].

إن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من جميع أنواع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتكون منها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالاً، و أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق[11].

أسلوب القرآن الكريم لا يرقى إليه أسلوب البشر سجعاً أو نثراً مرسلاً؛ ذلك لأنه إذا كان أسلوباً فنياً أدبياً فهو يعنى بجانب العاطفة وقد يوفق في إشباعها، وقد يقصر عن ذلك، وإذا كان أسلوباً علمياً كان معنياً بالحجاج والتدليل فهو معني بجانب الحجاج.

إذن فالأسلوب البشري غير قادر على الوفاء بهذين الجانبين أما أسلوب القرآن فهو يغمر القلب والعقل معاً، بل إنهما يقصران عن إدراك حقائقه واستكناهها في أقصى غاياتها الفنية والعملية.

قال الزرقاني: « إن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه مثلاً وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريها، كيف يسوق استدلاله سوقاً، ويهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة إمتاعاً بما جاء في هذه الأدلة المسكتة المقنعة[12]. ومثل بقول الله تعالى: (أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخُرُوجُ)[13]. تأمل في هذا الأسلوب، كيف أمتع العقل والعاطفة على السواء، كل أخذ بنصيبه منه فيا للجمال الساخر، والإعجاز الباهر، الذي يأخذ بعقل الإنسان وقلبه بأفصح لفظ، وأمتع عرض »[14].

إن منشئ القرآن ليس بشراً، بل هو خالق البشر، لذلك انفرد القرآن بطريقته في تأليف كلامه ونظمه، ومبانيه ومعانيه، ولم يعرف الخلق أسلوباً معجزاً مثل القرآن، فهو مباين لكلامهم، ومتميز عنه، وقد حاولوا أن يأتوا بمثله فعجزوا، وذلك دليل تفرده.

محاكاة القرآن والنسج على غراره

هناك أناس قد حاولوا معارضة القرآن فجاءوا ببعض ما يشبه الآيات الكريمة في التزام الفاصلة، فهم لم يتحدثوا إلا على ما يبعث الضحك والسخرية. مثل ما نقله الجاحظ في كتابه البيان والتبيين قوله: « إن كهان العرب الذين كانوا أكثر أهل

الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدّعون الكهانة، وأن مع كل واحد منهم رئياً من الجن، مثل حازي جهينة ومثل شق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع كقوله: وَالأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وِالعُقَابِ وَالصَّعْقَاءِ[15]، وَاقِعَةٌ بِبَقْعَاءِ[16]، لَقَدْ نَفَرَ الْمَجْدُ بَنِي الْعَشْرَاءِ، لِلْمَجْدِ وَالسَّنَاءِ »[17].

وهذا النوع من السجع معروف عند الجاهلية، ثم أهملوه بعد مجيء الإسلام، لكنهم لم ينسوه بالكلية، بل بقي أسلوبه معروفاً؛ وعندما بعث الرسول ﷺ عدّوه كاهناً وشاعراً، ودفعاً لذلك الزعم الباطل قال تعالى: (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ)[18].

وقوله: (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)[19].

وهذه أمثلة من سجع الكهان لنجسد الفارق بين أسلوب القرآن وأساليب الكهنة التي نسجت على غراره. نقل القالي في أماليه مما روي عن الكاهنة زبراء قالت: « يَا ثَمَرَ الأَكْبَادِ، وَأَنْدَادَ الأَوْلادِ، وَشَجَا الْحُسَّادِ؛ هَذِهِ زَبْرَاءُ تُخْبِرُكُمْ عَنْ أَنْبَاءٍ، قَبْلَ انْحِسَارِ الظَّلْمَاءِ، بِالْمُؤَيَّدِ الشَّنْعَاءِ،فَاسْمَعُوا مَا تَقُولُ قَالُوا: وَمَا تَقُولِينَ يَا زَبْرَاءُ؟ قَالَتْ: وَاللَّوْحِ الْخَافِقْ، وَاللَّيْلِ الْغَاسِقْ، وَالصَّبْحِ الشَّارِقْ، وَالنَّجْمِ الطَّارِقْ، وَالْمُزْنِ الْوَادِقْ[20]؛ إِنَّ شَجَرَ الْوَادِي لَيَأْدُوا خَتْلاً[21]، وَيخْرِقُ أَنْيَاباً عُصْلاً[22] »[23].

حاكت هذه الكاهنة أسلوب القرآن، ولكنها قصرت دونه. أين هي من قوله تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۞)[24].

إننا نرى الكاهنة قد حاكت القرآن ونسجت على منواله وخصوصاً القسم الثاني منه. أي في الأسلوب القسمي، وتقطيع الجمل والسجع[25].

فهذا الأسلوب الذي أتى به الكهنة، سواء كان في تنبآتهم في معارضاتهم للقرآن، فإنها أتت هزيلة، ضئيلة، شاحبة، بل ميتة، أبدت عن قبح هذه الأسجاع، وحطتها.

فهذا مسيلمة وصحبه الذين شاركوه في الضلالة، إنما أخذوا بما ألفه لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه، وتعاطى مقارنته.

لقد جاء مسيلمة وأتباعه بالفرية الكبرى، والبهتان العظيم، لأنه مما يعسر تصديقه أن يحتج إنسان بمثل هذا الكلام، الذي لا غاية له في الغثاثة والسخف والحطة.

يقول الباقلاني: «فأما كلام مسيلمة وما زعم أنه قرآن، فهو أخسُ من أن نشغل به، وأسخف من أن نفكر فيه، وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ، وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل، وميدان الجهل واسع »[26].

ومثل ذلك ما نقل صاحب كتاب الإعجاز الموسيقي في القرآن من حكايات عن مسيلمة وبعض الأعراب. نحو قول مسيلمة: « الْفِيلُ مَا الْفِيلُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ ذَنَبٌ وَثِيلٌ[27]، وَخَرْطُومٌ طَوِيلٌ »[28].

وقول أعرابي حضر صلاة جماعة فتقدم فقرأ: « يَا مُهْلِكَ الْفِيلِ، وَمَنْ سَارَ مَعَ الْفِيلِ، وَكَيْدُ الْقَوْمِ فِي تَبٍّ وَتَضْلِيلٍ، صَبَّهُ اللهُ عَلَى الْفِيلِ أَبَابِيلِ، وَضَحَى مِنْ طِينٍ مِسْجِيلِ، فَصَارَ الْقَوْمُ فِي قَاعٍ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ »[29]. وقرأ في الثانية: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ هَيْنَمَ فِي صَلاَتِهِ، وَأَطْعَمَ الْمِسْكِينَ مِنْ مِخْلاَتِهِ، وِاجْتَنَبَ الرِّجْسَ وَفِعْلاَتِهِ، بُورِكَ فِي بَقَرِهِ وَشَاتِهِ »[30].

إن المفارقة بين الآيات القرآنية، وهذه الأسجاع سواء قصد بها التضليل أم لا، تبدو ظاهرة قوية؛ لأن المعاني في الآيات القرآنية مؤداة بألفاظ موافقة لها، وهي جزء من المعاني، ولو تم البحث في ألفاظ اللغة كلها لوجد ما يجمل غيره في موضعه في كل آية من آيات القرآن.

أما الذي انتهى إليه هذا الكلام المسجع فهي الألفاظ فقط لوزنها وصيغتها، فالمعنى في هذا الأسلوب تابع للفظ محكوم به.

إن لفظة القرآن تميزت بخصائص لا تتوفر لأي عمل أدبي، مهما ملك صاحبه من مواهب فطرية، ونبوغ خلاق، فاللفظة المختارة تسهم في أداء المعنى، مصحوبة بقوة جرسها(31).

أما أقوال مسيلمة الكذاب، وجفاة الأعراب، وسجع الكهان بعامة، فإن السامع لذلك، والقارئ له ينتهي به الحال إلى السخرية والضحك، لما فيه من سخف القول، وضحالة الفكر، وهلهلة النسج، ناهيك أنه صادر عن إنسان ألغى فكره وعقله، وأضله الشيطان وأغواه.

يقول السيد تقي الدين: « إن في النفس الإنسانية قوتين، قوة وجدان، وقوة تفكير، فقوة التفكير تنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وقوة الوجدان هي التي تسجل الإحساس من لذة وألم، فأسلوب القرآن هو الذي يجمع بين هذين النقيضين، العقل والوجدان – الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية – معاً لكن لم نظفر بذلك في الأساليب الأخرى.

هذا كلام الأدباء، والحكماء، والعلماء، والشعراء فلم نظفر بمثل هذا، بل وجدنا غلواً في جانب، وقصوراً في جانب آخر »(32).

اجتماع قوة الوجدان وقوة التفكير

لم يجتمع في أسلوب من الأساليب قوة التفكير وقوة الوجدان بل إذا وجد أحدهما قل الآخر، عكس الأسلوب القرآني الذي يجمع هذا وذاك ويخاطب العقل والقلب في آن واحد.

يقول السيد تقي الدين: « هذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين، ذلك هو الله رب العالمين، الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً، بلسان واحد، وأن يخرج الحق

والجمال معاً، يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين، وهذا ما نجده في كتاب الله الكريم»[33].

إن المتتبع للقرآن، يلمس روعة ما فيه من الجمال، وصور الإبداع التي تشع، ومدى ما يملكه من سيطرة على الوجدان، فتميز أسلوب القرآن بعامة بخصائص معجزة لا تتوفر لكل أسلوب مهما بلغ صاحبه من مواهب فطرية، ومهما كرس من جهد، أن يأتي ببعض ما احتواه أسلوب القرآن.

قال السيد تقي الدين: « ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصته كفك من الكلمات عداً ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن دفتي المصحف وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذلك، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك؟ فكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد »[34].

أضف إلى ذلك أن أسلوب القرآن قد انفرد بأسلوب دون ما سواه، فإن اتفق لأساليب الكهنة مثلاً كلام ذو ألفاظ مسجوعة، فلن يتفق لهم في ألفاظ ذات معانٍ مع التناسق العجيب بين حروفه. يقول محمد البوطي: « عندما تقرأ بضع آيات من القرآن، تشعر بإيقاع موزون من تتابع آياته، بما يسري في صياغته، وتآلف كلماته، وتجد في تركيب حروفه تناسقاً عجيباً، بين الرخو منها والشديد، والمهجور والمهموس، والممدود والمقطوع، بحيث يؤلف اجتماعها إلى بعضها لحناً مطرباً يفرض نفسه على صوت القارئ »[35].

قال تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۞ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۞ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۞ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۞ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۞ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۞)[36].

مغايرة الأسلوب القرآني لأساليب الكتاب

إن هذا الأسلوب القرآني لا يراعي ذات اللفظ ولا يراعي التقفية والمقاطع، إنما هو مباين للمألوف، خارج على ما تواضع عليه البشر، وانظر إلى مواقع الحروف وحركاتها في حسن السمع لها، فهو جارٍ على نسق عالٍ رفيع، في جمال اللفظ وروعة التعبير، ونرى الأسلوب المعجز، الذي لا يرقى إليه أسلوب، فترى اللفظ في موضعه لا يحسن غيره مكانه.

يقول الرافعي: « أي معنى أعجب من أن تتجاذبك معاني الوضع في ألفاظ القرآن، فترى اللفظ قاراً في موضعه، لأنه الأليق في النظم، ثم لأنه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك مناسبة لمفردات الآية، مما يتقدمه أو يترادف عليه، حتى خرج بذلك كله في تركيب قصر معارضته أن تنتهي إليه بعينه »[37].

ولا نتوهم أن شخصاً ما، يطمع أن يداني في مثل ما جاء به القرآن، مهما أوتي من مقدرة في البلاغة، وتفوق في البيان، ورقة في الحسن، فآيات القرآن ترشد إلى نفسها وترى موقعها، حتى ولو وقعت في أساليب مختلفة متمايزة. وأكد الرافعي أيضاً ذلك بقوله: « إن ألفاظ القرآن بائنة بنفسها، متميزة من جنسها، فحيثما وجد منها تركيب في نسق من الكلام دل على نفسه، وأومأت محاسنها إليه، ورأيته قد وشح ذلك الكلام وزينه وحرك النفس إلى موضعه منه، وهو يعد أمراً واقعاً لا وجه للمكابرة فيه ولا نعرف له سبباً إلا ما بيناه من الصفة الإلهية في معانيها، وغرابة الوضع التركيبي في ألفاظه »[38].

إن من يعنون من الخطباء والكتاب بأمر التنميق، ويلتزمونه في بعض خطبهم وكتبهم، كثيراً ما ينظرون إلى الزخرفة اللفظية في المقام الأول وقد يضطرهم الشغف بذلك إلى تكلفات يصير بها بعض الفقرات غامضاً مبهماً، أو قليل الجدوى، وهذا في أغلب الأمر هو شأن الكلام الذي تكون العناية فيه بالمعنى وراء العناية باللفظ، على

حين أن الكلام الجيد هو الذي يكون فيه اللفظ تابعاً للمعنى، وهذا النوع من الأسلوب الجيد المحمود هو ما يمثله أسلوب القرآن الكريم؛ جاءت فقره متعانقة مع ما قبلها مستقرة في مواضعها، كفيلة بروعة المعنى، وجمال الصورة، وتجانس الجرس، وحلاوة الموقع، لها أسبابها ومسبباتها، وأبعادها ومراميها، فزادت المعاني قوة، واكتسبت الألفاظ بها جرساً ونغماً.

فالقرآن لا يناسب بين الفواصل بلفظ غيرهُ أفضلُ منه؛ لأن ذلك يكون لرعاية الزخرف والبهرج على حساب المعنى، فجرس الحروف والكلمات المتكرر من خلال القوافي، يدركه من يقرأ القرآن ويستمعه، ولنضرب مثالاً على ذلك قال تعالى: (أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۞)(39).

هذه اللمسات الإيقاعية تجمع بين السماء والأرض، والجبال والجمال، في مشهد واحد، حدوده تلك الآفاق الواسعة من الطبيعة. كما جاء في الظلال: « إن الأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة، والأرض المبسوطة، وفي هذا المدى المتطاول، تبرز الجبال منصوبة السنان لا راسية ولا ملقاة، وتبرز الجمال منصوبة السنام، خطان أفقيان، وخطان رأسيان في المشهد الهائل في الساحة، ولكنها لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات على طريقة القرآن في عرض المشاهد »(40). فقد قسمت الحركة والسكون تنويعاً يجدد نشاط السامع عند سماعه لهذه الآيات.

وقال تعالى: (وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۞ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى ۞ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ۞)(41)

فأنت أمام شطرة واحدة، وهي تخلو من الوزن والتقفية والتشطير، ومع ذلك فأنت في لحن متجدد من جراء ذلك النسج الهائل.

وللتدليل على الفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الكتّاب سيتم دراسة مجموعة من النصوص الجيدة لكتاب بارزين مشهورين عُرفوا بالفصاحة وكانوا آية في حسن الأسلوب الكتابي من أمثال بديع الزمان الهمداني، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والصابي، والخوارزمي، والتعرف على خصائص هذه النصوص بعد أن تمت دراسة خصائص الأسلوب في القرآن الكريم، حتى يتجسد الفارق الكبير، والبون الشاسع، بين أسلوب الكتّاب، وأسلوب القرآن الكريم.

قال بديع الزمان الهمداني في المقامة (السجستانية)[42]: « مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا أُعَرِّفُهُ بِنَفْسِي، أَنَا بَاكُورَةُ الْيَمَنِ[43]، وأُحْدُوثَةُ الزَّمَنِ[44]، سَلُوا عَنِّي الْبِلاَدَ وَحُصُونَهَا، وَالْجِبَالَ وَحُزُونَهَا[45]، وَالأَوْدِيَةَ وَبُطُونَهَا، وَالْبِحَارَ وَعُيُوْنَهَا، وَالْخَيْلَ وَمُتُونَهَا[46]، مَنِ الَّذِي مَلَكَ أَسْوَرَهَا، وَعَرَفَ أَسْرَارَهَا، وَنَهَجَ سَمْتَهَا[47]، وَوَلَجَ حَرَّتَهَا[48] ». إلى أن يقول: « أَنَا وَاللهِ شَهِدْتُ حَتَّى مَصَرِعَ العُشَّاقِ، وَمَرِضْتُ حَتَّى لِمَرَضِ الأَحْدَاقِ »[49].

وكتب أبو الفضل ابن العميد إلى بعض إخوانه: « أَنَا أَشْكُو إِلَيْكَ – جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ – دَهْراً خَؤُوناً غَدُوراً، لاَ يَمْنَحُ مَا يَمْنَحُ إلاَّ رَيْثَ مَا يَنْزِعُ، ولاَ يُبْقِي فِيمَا يَهِبُ إلاَّ رَيْثَ مَا يَرْتَجِعُ، يَبْدُو خَيْرُه لُمَعاً[50]، ثُمَّ يَنْقَطِعُ، وَيَحْلُو مَاؤُهُ جُرَعاً[51] ثُمَّ يَمْتَنِعُ »[52].

وقال أبو بكر الخوارزمي: « لاَ صَغِيرَ مَعَ الْوِلاَيَةِ[53] وَالْعَمَالَةِ[54] كَمَا لاَ كَبِيْرَ مَعَ الْعَطْلَةِ[55] وَالْبَطَالَةِ، وَإِنَّمَا الْوِلاَيَةُ أُنْثَى تَصْغُرُ وَتَكْبُرُ بِوَالِيهَا وَمَطِيَّةٌ[56] تَحْسُنُ وَتَقْبُحُ بِمُمْتَطِيهَا، وَالصَّدْرُ لِمَنْ يَلِيهِ، وَالدِّسْتُ[57] لِمَنْ جَلَسَ فِيهِ، وَالأَعْمَالُ بِالْعُمَّالِ كَمَا أَنَّ النِّسَاءَ بِالرِّجَالِ »[58].

وكتب الصاحب بن عباد إلى الثعالبي، يقول: « وَصَلَ كِتَابُ مَوْلاي وَسَيِّدِي أَبْدَعُ الْكُتُبِ هَوَادِي وَأَعْجَازاً[59]، بَلاغَةً وَإِعْجَازاً[60]، فَحَسِبْتُ أَلْفَاظَهُ دَرَّ السَّحَابِ[61]، أَوْ أَصْفَى قَطْراً وَدِيمَة[62]، وَمَعَانِيهِ دُرُّ السَّخَابِ، بَلْ أَوْفَى قَدَراً وَقِيمَةً، وَتَأَمَّلْتُ الأَبْيَاتَ

فَوَجَدْتُهَا فَائِقَةَ النَّظْمِ وَالرَّصْفِ، عَبِقَةَ[63] النَّسِيمِ وَالْعُرْفِ[64]، فَائِزَةً بِقِدَاحِ[65] الْحُسْنِ وَالظُّرْفِ[66] مَالِكَةً لِزِمَامِ الْقَلْبِ وَالطَّرْفِ »[67].

وقال أبو إسحاق الصائبي: « الْحَمْدَ للهِ الَّذِي لاَ تُدْرِكُهُ الأَعْيُنُ بِأَلْحَاظِهَا[68]، وَلاَ تَحدُهُ الأَلْسُنْ بَأَلْفَاظِهَا، وَلاَ تُخْلِقُهُ الْعُصَورُ بِمُرُورِهَا، وَلاَ تُهْرِمْهُ الدُّهُورُ بِكُرُورِهَا »[69].

إن لهذا الفن الكتابي مدرسة قائمة بنفسها لها كتابها البارزون، ولها مقوماتها الفنية، وسماتها الأسلوبية، فقد اتسمت هذه النصوص بالخروج من نطاق قصر المقاطع وحريتها، إلى طولها وكثرتها، كما حرص هؤلاء الكتاب إلى المبادرة لتنميق عباراتهم وتزيينها وزخرفتها.

يقول التوحيدي: « كان أكثر كتاب العصر العباسي يجنحون إلى السجع في كتاباتهم، وكان شأنهم هذا في ازدياد طوراً بعد طور، لقد ساغ لهم هذا النمط القديم المتجدد، فرأوا أن السجع في الكلام كالملح في الطعام »[70].

ومع هذا كله كانت الكلمات متوازنة، وألفاظهم متناسبة، ولم يأت الأسلوب في هذه النصوص السابقة ممقوتاً مستكرهاً، حتى وإن قصدوا الصنعة، والتزموها التزاماً، فهذه النصوص ظاهرة الصنعة بلا تكلف، وهي أعلى مراتب الصنعة.

إلا أن هذا الأسلوب الذي مر في هذه النصوص لا يداني أسلوب القرآن في شيء، برغم جودته وحسنه.

فعندما نمعن النظر في الآيات القرآنية تتبدى أشياء جديدة في كل مرة، فهي مستويات من المعاني، وأنماط من الترابط، تبدو وكأنها ببعد واحد، فإذا تأملتها تكشفت لك أبعادها الأخرى.

أما أسلوب الكتاب فلا بد أن تلحظ فيه أثر الصنعة حتى وإن كان النص في أعلى مراتب الجودة والبلاغة.

يقول الرافعي: « وحسبك أن تأخذ قطعة منه في الموعظة والترغيب، أو الزجر والترهيب، أو نحو ذلك مما يستفيض فيه الكلام الإنساني، فتقرنها إلى قطعة مثلها، من

كلام أبلغ الناس بياناً، وأفصحهم عربية، لترى فرق ما بين أثر المعنى الواحد في كلتا القطعتين، ولتقع على مقدار الطبقة الإلهية أو الطبقة الإنسانية »[71].

لنقرأ قصة نوح في سورة نوح من قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ۞)[72]، إلى ختام السورة.

ثم لنقرأ قصة نوح في سورة هود، من قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞)[73] إلى قوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۞)[74]. وهي ست وعشرون آية.

ثم لنقرأ قصة نوح في سورة القمر، وهي قوله تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۞ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۞ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۞)[75].

إن هذه القصة في السور الثلاث أتت متفاوتة، لكنك تجد فرقاً في العرض، والتصوير، في كل من هذه المواقع الثلاث، وكلما أخذت في قراءتها في موضع تشعر وكأنك تقرأ خبراً جديداً لا علاقة له بالأول[76].

أما النص الأدبي الآخر، فإنه إذا أعيد من زاوية أخرى، فلا ترى النفس له حاجة في الإعادة والذكر، بغض النظر عن نوع الأسلوب.

ثم إن هذه الأساليب التي وردت في النصوص القرآنية، أقرب إلى الفطرة الإنسانية، منها في النصوص الأدبية، وأحلى وقعاً في الأذن، ونلحظ كذلك أن هذه

الأساليب التي وردت في الآيات القرآنية متناسقة المعاني ناصعة متقاربة، فاتفقت جميعها عن غير قصد ولا اكتساب. قال تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ۞)[77]. أما أساليب المضللين كالسحرة والكهنة، الذين ضللوا الناس بهذا الأسلوب، وأوحوا إلى الناس انهم يعلمون الغيب، فهو أسلوب غامض المعنى، متكلف الألفاظ.

يقول سطيح: « أُقْسِمُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مِنْ حَنَشٍ لَتِهْبِطَنَّ أَرْضَكُمْ الْحَبَشْ، فَلْيَمْلِكَنَّ مَا بَيْنَ أَبْيَنَ إِلَى جَرَشٍ »[78].

وكذب أيضاً الكاهن شق بقوله: « أُقْسِمُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مِنْ إِنْسَانٍ لَيَنْزِلَنَّ أَرْضَكُمُ السُّودَانْ، فَلْيَغْلِبَنَّ عَلَى كُلِّ طِفْلَةِ الْبَنَانِ وَلْيَمْلِكَنَّ مَا بَيْنَ أُبِينَ إِلَى نَجْرَانْ »[79].

ولقد كذب هذان الكاهنان فيما ادعياه وزعماه، فلم يملك الحبش ولا السودان أرض العرب، ولا حدث من ذلك شيء سوى قعقعة الألفاظ وفساد المعنى[80].

فهذان الكاهنان زينا أكاذيبهما بلون معين من الصياغة اللفظية، فهذا النوع من الأسلوب كان معروفاً في الجاهلية، وكان الكهان والعرافون يستخدمونه في أحكامهم وتنبؤاتهم كحكمي الكاهنين السابقين[81].

فهذا الأسلوب المتكلف وكذلك سجع الكهان، مذمومان من حيث إنهما سجع وتنسيق فواصل، وتكلف، أو إسراف في التكلف، أو من حيث إنه تكهن بالتحدث عن المستقبل، والرجم بالغيب، فهو كذب، وغش، وخداع.

ويقول شكري فيصل: « كان القرآن يعبر عن ثورة الروح، وعن تطلعها إلى الإيمان وكان غرضه التسامي فوق كل اعتبار أسلوبي آخر، فهو جديد لا في طابعه الإيقاعي السهل المنساب، بل فيما يحويه من كفاح الروح، فهنا مصدر جدته الجديدة التي كانت من قوة الفكرة، وعنف الكفاح، وصفاء الروح التي وراءها، بحيث تنسي المصغي إليها هذه الصورة الخارجية »[82].

إن المغالاة في أي شيء، تحقق عكس ما تريد، سواء كان ذلك فناً كلامياً، أو أي نوع من الأنواع الأخرى.

وقال المقدسي: « وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع، والتزام التقفية، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه، لم يفترقا إلا في الوزن، واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة، واستعملوها في المخاطبات، وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه، وسلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتناسوه »(83).

إن الأسلوب الغالب فيما أثر عن الكتاب المولعين بالزخرفة اللفظية مفتعل متكلف قد عنوا فيه بأمر اللفظ، أكثر مما عنوا بأمر المعنى، حتى جاءت بعض العبارات فيه صوراً بغير روح، وقشوراً بغير لب.

وكما فعل الكهان في العصر الجاهلي الذين اتخذوا هذا الأسلوب الذي يرجمون فيه بالغيب، ويتحدثون به عن المستقبل، ويدعون به معرفة أسرار الأقدار، ويتخذون وسائل الخداع والتمويه بما يودعون في كتاباتهم من الإبهام والغموض واستخدام الألفاظ التي لها أكثر من مدلول.

يقول الدكتور عمر الدقاق: « إننا وجدنا الكتاب والمصنفين، وحتى الذين كانوا في مؤلفاتهم بعيدين عن الأدب واللغة، وفي عباراتهم زاهدين في ألوان البديع، فإنهم حرصوا على هذا الطابع المميز في عناوين كتبهم، وجنحوا إلى جعلها رنانة على السمع، وكأن ذلك أصبح منهم تقليداً من التقاليد الفنية المحببة لا يحيدون عنها »(84).

ومثل لذلك بكتاب المؤرخ الشهير ابن خلدون الذي عرف بعزوفه عن السجع، ومع هذا اختار لكتابه تسمية مسجوعة: « كِتَابُ الْعِبَرِ، وَدِيْوَانُ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعُجْمِ وَالْبَرْبَرِ، وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الأَكْبَرِ »(85).

إن نظام الآيات في القرآن يسمح بوقف كامل تستريح عنده النفس، فهو نظام يخالف نظام الترسل، ويخالف أيضاً نظام السجع الذي أثر عن الجاهليين وشاع بعد الإسلام.

إن الخاصية المميزة في أسلوب القرآن الكريم، في نظمه، وترتيله، وإيقاعه كثيراً ما تنتهي الآيات قبل انتهاء المعنى. ففي سورة المدثر نرى الآية الحادية والثلاثين تزيد على الآية الثلاثين، والثانية والثلاثين، زيادة كبيرة، لنعلم أن المعول عليه والأساس في نظم القرآن هو المعنى، وأن البديع اللفظي والتغني به لا يقع إلا نافلة[86].

قال تعالى في سورة المدثر: (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۞ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ۞ كَلاَّ وَالْقَمَرِ)[87].

الخاتمة

إن القرآن الكريم في تأليفه له رنة الموسيقى المتمثلة في فواصله ولقد حاول الكتّاب والشعراء والكهان والخطباء محاكاة القرآن في فاصلته لكنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

كما يمتاز أسلوب القرآن بالمغايرة بين الفقرتين فلكل فقرة معنى يغاير الأخرى، بينما فقر الكتاب تكون تأدية الفقرتين بمعنى واحد، وقد تطول وقد تقصر، وقد تتغير من حرف إلى حرف آخر، كل ذلك لأسباب معينة راعاها النظم. فمثلاً سورة مريم تبدأ بقصة زكرياء ويحيى، ثم قصة مريم وعيسى، فتختتم فواصل الآيات بالياء، وتسير على هذه الصورة.

قال تعالى: (ذِكْرُ رَحْمةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً ۞)[88]. وقال:

(وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ۞ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياًّ ۞ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياًّ ۞ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياًّ ۞)[89].

فتنتهي القصتان على روي واحد، ثم لا يلبث أن يتغير هذا النسق بعد آخر فقرة في قصة عيسى. قال تعالى: (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞)[90].

إن أسلوب القرآن الكريم يأتي على صور متنوعة عدة، وأن أسلوب الحكم في هذه الآيات يتطلب إيقاعاً قوياً بدل الإيقاع الرخي المسترسل. وبعدما انتهى من إصدار الحكم عاد إلى الأسلوب القصصي فتنوع الإيقاع تبعاً لذلك[91].

وإذا رجعنا بالأسلوب الذي كان ينشئه الكتّاب والخطباء والأدباء جميعاً، في الجاهلية أو في صدر الإسلام أو فيما بعد ذلك، لرأينا أنه وضع إلى جانب الأداء أغراض أخرى، كالجمال والمتعة، والزينة، وذلك لأن طاقة الأديب تلاشت بين اثنين، بين الغرض الأصيل وهو الأداء، والغرض الدخيل وهو الزخرفة والتجميل، فساق الاهتمام برعاية الثاني على حساب الأول[92].

ولا ريب في أن أسلوب القرآن الكريم – كما اتضح لنا فيما مضى – تميز عن أسلوب الكتاب والخطباء بروعة مواقعه ودقة أحكامه، وكمال انسجامه، وتطلب المعنى له.

فأسلوب القرآن تميز عن أسلوب الكتّاب وتفرد بهذا الوجه المعجز، وهو تأليف حروفه، وتناسق معانيه، فلو أبدلت حرفاً مكان حرف، أو أسقطه، لكان ذلك خللاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسقه، وجرسه ونغمته، وفي حسن السمع وفي انسجام العبارة، وبراعة المخرج، وتساند الحروف، ولرأيت لذلك هجنة في السمع.

هوامش

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة: سلب. لسان العرب، ج1، ص433.

(2) أحمد الشايب، الأسلوب، مطبعة السعادة، ط الثانية، 1956، ص121.

(3) المرجع السابق، ص126.

(4) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، د.ت، ط3، ص72.

(5) سورة فصلت، الآيات: 1 – 3.

(6) سورة فصلت، الآيتان: 12،13.

(7) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأنباري، عبدالحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د.ت، ج1، ص314.

(8) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1990، ج3، ص334.

(9) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، المنصورة، 1997م، ج2، ص218.

(10) ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت عام النشر، 1999م، ص111.

(11) نفسه، ص112 وما بعدها.

(12) الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص335.

(13) سورة ق، الآيات: 6 – 11.

(14) ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص335 وما بعدها.

(15) الصعقاء: الشمس. والصعقاء التي لا تمر بشيء إلا حرقته، وصعق: غشي. أساس البلاغة، للزمخشري، دار صادر، بيروت – لبنان، ط1، 1992م، ص355.

(16) بقعاء: قطعة من الأرض مخالفة لما جاورها. لسان العرب، مادة بقع، ج8، ص18.

(17) الجاحظ، البيان والتبيين، ، ج1، ص159، العشراء: الزيادة والتمام، المد: الكرم، السناء: الرفعة والشرف.

(18) سورة الطور، الآيتان: 29،30.

(19) سورة القمر، الآية: 2.

(20) المزن: السحاب والغمام، والودق: القطر، أساس البلاغة، ص593.

(21) ختلا: على غير توقع، لسان العرب، ج11، ص200.

(22) عصلاً: شجر معوج صلب، أو السهم الذي لا ريش فيه، أو الصلب من كل شيء، لسان العرب، مادة عصل، ج11، ص499.

(23) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي، المكتبة التجارية الكبرى، ط الثالثة، 1953، ج1، ص125.

(24) سورة الشمس، الآيات: 1 – 10.

(25) القالي، الأمالي، ج1، ص125.

(26) محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط.5،1997م، ص128.

(27) وثيل: ضعيف، لسان العرب، ج11، ص922.

(28) محيي الدين عبد الرحمن رمضان، وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان،، د.م، ط.1، 1982م، ص46.

(29) المرجع نفسه، ص47.

(30) المرجع نفسه.

(31) السيد تقي الدين السيد، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن، ج1، دار نهضة مصر، القاهرة، 1984م، ص117.

(32) المرجع نفسه، 118.

(33) المرجع نفسه، ص118،119.

(34) المرجع نفسه، ص115.

(35) البوطي، من روائع القرآن، ص112.

(36) سورة القمر، الآيات: 33 – 40.

(37) الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج2، ص252.

(38) ينظر: المرجع السابق، ص247.

(39) سورة الغاشية، الآيات: 16 – 20.

(40) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت– القاهرة، ج6، ص3899.

(41) سورة الضحى، الآيات: 1 – 9.

(42) المقامة السجستانية إحدى مقامات بديع الزمان، نسبة إلى إقليم سجستان فارس الشرقية، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص16.

(43) باكورة اليمن: أول اليمن، لسان العرب، ج4، ص78.

(44) الأحدوثة: ما يتحدث به الناس وهي الأعجوبة، نفسه، ج2، ص113.

(45) الحُزُون: جمع حَزَن. وهو الغليظ المرتفع، نفسه، ج13، ص114.

(46) متون الخيل: ظهورها، نفسه، ج13، ص398.

(47) السمت: الطريق، وولج حرتها: دخل إلى وسطها، نفسه، ج2، ص46.

(48) بديع الزمان الهمذاني، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، القاهرة،1997م، ص17،18.

(49) المرجع السابق، ص18.

(50) لَمَعَا: برق وأضاء، والمقصود به ظهوره مرة ثم اختفاؤه، لسان العرب، ج8، ص334.

(51) جُرَعاً: من جرع بلع، والجرعة ملئ الفم، وجرع الغيظ كظمه، نفسه، ج8، ص46.

(52) زهر الآداب، ج1، ص561.

(53) الوِلاية: بالكسر بمنزلة الإمارة. لسان العرب، ج15، ص409.

(54) العمالة: عملته بمعنى وليته، وجعلته عاملاً. نفسهن ج11، ص476.

(55) العطلة من التعطيل وهي التفريغ، وعطّل الدار: أخلاها، وبئر معطلة: لا يسقى منها، نفسه، ج11، ص454.

(56) المطية: المركوب، نفسه، ج15، ص286.

(57) الدست: الرياسة وصدر المجلس، وتطلق على الثياب، وبالفارسية تعني اليد.

(58) زهر الآداب، ج1، ص561.

(59) أصل الهادي العنق. وجمعه هوادٍ، والمراد به الأوائل. لسان العرب، مادة هدي، ج15، ص356.

(60) در السحاب: المقصود به المطر. نفسه، مادة در، ج4، ص280.

(61) القطر: المطر، وديمة: المطر الذي ليس فيه برق ولا رعد. نفسه، مادة قطر، ج15، ص105.

(62) السخاب: قلادة من قرنفل. نفسه، مادة سخب، ج1، ص461.

(63) عبق: لزق ولزم، وعبقت الرائحة في الشيء عبقاً، بقيت. وعبقت الشيء بقلبي: بقي. وريح عبيق: لاصق. نفسه، مادة عبق، ج10، ص339.

(64) العَرف: الرائحة طيبة كانت أو خبيثة. وعرفه: طيبه. والتعريف: التطييب. مادة عرف، ج9، ص240.

(65) قداح. مفردها قدح: وهو السهم الذي كانوا يستقسمون به، أو الذي يرمى عن القوس. نفسه، مادة قدح، ج9، ص240.

(66) الظرف: حسن العبارة، وقيل حسن الهيئة، وقيل الحذق في الشيء، وقيل جيد الكلام البليغ. نفسه، مادة ظرف، ج9، ص228.

(67) الطرف: العين، نفسه، مادة طرف، ج9، ص213. زهر الآداب، ص127.

(68) اللحظ: نظر بمؤخر العين. واللحظة: النظرة. لسان العرب، ج7، ص458.

(69) كرورها: تعاقبها وتداولها، مادة كر، ج5، ص135. المثل السائر

(70) الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي، ج2،ص186.

(71) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص206.

(72) سورة نوح، الآيات: 1 – 6.

(73) سورة هود، الآية: 25.

(74) سورة هود، الآية: 49.

(75) سورة القمر، الآيات: 9 – 15.

(76) ينظر: البوطي، من روائع القرآن، ص119.

(77) سورة النساء، الآية: 81.

(78) بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، دار العلم للملايين، ط.4، د.ت، ج3، ص125.

(79) المرجع السابق نفسه.

(80) المرجع السابق نفسه.

(81) محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط.2، 1983م، ص226.

(82) شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ص425.

(83) أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م، ص215.

(84) عمر الدقاق، ملامح النثر العباسي، دار الشرق العربي، بيروت – لبنان، د.ت، ص389.

(85) المرجع السابق، ص389.

(86) ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج1، ص108.

(87) سورة المدثر، الآيات: 30 – 32.

(88) سورة مريم، الآيات: 15 – 19.

(89) سورة مريم، الآيات: 29 – 37.

(90) سورة مريم، الآية: 5.

(91) زكي مبارك، النثر الفني قفي القرن الرابع، ج1، ص78.

(92) سورة مريم، الآيات: 1 – 3.